بسم الله الرحمٰن الرحيم
والصلاة والسلام على أشرف المرسلين

«عالم القيمة أو الإنسان بالحقيقة»

د . الربيع ميمون
أستاذ بمعهد الفلسفة
جامعة الجزائر

1 – ان القيمة من الكلمات التي تظهر في غير حاجة الى تعريف لأنها واضحة بذاتها ، ولأن كل انسان يدرك معناها بالبداهة سواء كانت حقا أو خيرا أو غيرهما .

والحقيقة أن التفكير فيها ، وفي أنواعها ، يبدي أن مشاكلها كثيرة . وهي مشاكل يتبين العقل عجزه أمامها حين يصطدم بها ، ويقف حتى جهابذة المفكرين حين يهتمون بها حيارى أمام ما تطرحه عليهم من الأسئلة العويصة المعقدة التي لا يسهل الالمام بمعطياتها ومجاهيلها .

ولعل الوقوفَ مع استعمالاتنا لها خير طريق يمكننا أن نسلكه للوصول الى رؤيتها في وضوحها وغموضها ، وفي قربها منا ، وبعدها عنا ، وفي طواعيتها لنا ، وتمنّعها علينا .

ان القيمة في اللغة العربية تستعمل للدلالة على اسم النوع من الفعل قام ، يقوم ، قياما بمعنى وقف ، واعتدل وانتصب ، وبلغ واستوى[1] – وتستعمل للدلالة مجازًا على ما اتفق عليه أهل السوق وروجوه في معاملاتهم بكونه عوضًا للمبيع –[2] وذلك لأنها تقوم بهذا المعنى مقام ماهي عوضٌ له . ويقوم هذا الأخير مقامها . فهي ، كما نرى ، ذات معان في اللغة يمكننا أن نستشف من خلالها بروز الوجود وثباته ، والبعد عن الزوال والاختفاء ، وعن التغير والاستحالة . فالرجل الذي له قيمة هو الذي يدوم على حاله ولا يتغير . وبالتالي فهو رجل يمكننا أن نعوّل عليه . وأما الرجل الذي ليست له قيمة فهو الذي لا يبقى على حاله ويتلون كما تتلون الحرباء ، فلا نستطيع أن نُثْبِتَ له صورةً . وبالتالي فلا نستطيع ان نحدد له قوامًا او دعامة .

ويظهر أن معنى القيمة المجازيَّ غير بعيد عن معناها الحقيقي . وذلك لأنَّ قيمة المبيع هي التي تحده وتعينه ، وتُثْبِتُ له قَدْرًا في حقل المبادلات . فاذا كانت قيمة الخبزة دينارا ، وبيعت بأقل أو أكثر من ذلك ، فانه لا يمكننا أن نقول بأن بيعها يخضع لما هو واجب أن يكون . وبالتالي فان وجودها في السوق غيرُ مضمون لنا لأنه وجودٌ تابع للفوضى التي تتسمُ بها قيمتها . وبالفعل فالسلعة التي لا تكون لها قيمة ثابتة سلعة قد تفقد قيمتها ، وقد يفقد الناس معها الكثير من قيمهم كما هو معروف في عصرنا ، وفي العالم كله .

2 – ان القيمة مهما كانت ، يجب أن تكون ثابتة ومعتدلة ، ومستوية ، لتستقيم الأمور للانسان ، ويستطيع أن يعيش انسانا كاملا يعيش بالروح ، لا إنسانًا يعيش فيما يسميه «هيچل» بالحالة الحيوانية للروح .

ولعل هذه الأهمية التي للقيمة في صلاح الوجود وفساده هي التي تجعلها موضوع اهتمام فريدٍ في نوعه لدى أصحاب الاختصاصات كلها . فهي ذات مكانة في علم اللغة ، وفي الموسيقى ، وفي الرياضيات ، وفي العلوم ، وفي الفلسفة ، وفي الدين[3] ، «وذلك دين القيمة»[4] أي دين الملة القيمة ، وهي التي تدعو تعاليمُها الى الحق لا الى الباطل ، والى الخير لا الى الشر ، والى الحسن لا الى القبح .

فالقيمة ، اذن ، في كل المجالات ، ويهتم بها أصحابُ الاختصاصات كلها لأنها مطلب كل باحثٍ وغايتُهُ .

3 – ولقد كانت تدل عليها في الفلسفة القديمة كلماتُ الخير ، والخير الأسمى ، والكمال[5] ، وصارت موضوعا له أهمية قصوى في الأوساط الفكرية الأوروبية في القرن التاسع عشر لأسباب سنتعرض لها بعد قليل .

انه لصحيح أن المفكرين بحثوا فيها من قبل ذلك ، ولكنهم لم يعيروها الأهمية التي أعطاها لها هذا القرن ، ولم يفكروا في أن يعطوا لبحثهم فيها شكل النظرية أو الفلسفة . لقد كانوا يهتمون بها تبعا لاهتمامهم بالوجود وكانوا ينظرون إليها من زاويته ويجعلونها من مقتضياته ويجعلونه من مقتضياتها . ولعل مسألة المتعاليات (Les Tranmscendan taux) التي اهتم بها فلاسفةُ القرون الوسطى وفلاسفتنا مثل ابن سينا وغيره ترينا بما فيه الكفاية أنهم كانوا ينظرون إليها على أنها حقيقة لا يمكن فصلها عن الوجود ، ولا فصل الوجود عنها[6] .

فالوجود وحدةٌ وخير وحق وجمال . وكل واحد من هذه حدٌّ يمكن حمل الآخرين كلهم عليه . فالحق ، مثلا ، ليس حقا فحسب ولكنه ، أيضا ، وحدةٌ وخير وجمال . وكذلك الوحدة والخير والجمال .

ونظرا الى هذا ، فإن مراتب الكمال ، في نظر الفلاسفة القدامى ، هي مراتب الوجود والعكس .

ونظرا الى هذا ، أيضا ، فان القيمة لم تكن لديهم تتمتع بوجود خاص أو مفارق . فهي بالنسبة اليهم ، قيمة لموجود دائما ، وليست زائدة عليه . والموجود يتضمنها دائما ، وهو غير مجرد عنها ، اذ أنها في الموجودات مثل موصل يربط بعضها ببعض ، ويحدث بينها وحدةً ما ، ويجعلُ كل واحدٍ منها لكل الآخرين . ولهذا فهي دائما طالبةٌ ومطلوبة ، وهي دائما ذاتٌ وموضوع . ويمكننا أن نقول عنها إنها ليست ذاتا ولا موضوعا لأنها في النهاية طالبةٌ ومطلوبة لنفسها دون غيرها[7] ، ولا يمكن أن تكون غير هذا ، لأن القيمة لا تطلب الا قيمة ، ولأن اللاقيمة لدورها لا يمكنها أن تطلب القيمة – وبالفعل ، فالاتحاد بين اللاقيمة ، والإنسان – القيمة أو بين القيمة والانسان الذي لا قيمة له شيء مستحيل[8] .

4 – هكذا يرى القدماء القيمة بصفة عامة . لقد كانوا يرونها حسب ما كان يتجلّى لهم منها ، ولم يكونوا يطلبون أكثر من ذلك في تبين أمرها . والحقيقة أنها كانت تظهر لهم بهذه الحال لأنها ليست من الموضوعات العقلية التي تتطلب البرهنة عليها لإثباتها ، ولكن من الموضوعات التي يشعر بها الإنسان ، ويعرفها بشعوره وبكيانه كله حين يصطدم بها أو تتجلّى له على غير انتظار منه ، أو حين يتأتّى له أن يتلبس بها ، وأن يعيش من أجلها ، أو حين يحسّ بها فيتعاطف معها ، ويمتزج بها وتمتزج به ، أو تصير وجوده ويصير وجودها ، ويصبح من الذين يعبرون عنها ، وكأنها هي التي تعبر عن نفسها من خلاله .

ان القيمة تتجاوز العقل ، ولا يستطيع هذا الأخير أن يحيط بها ، وان كان هو الذي يجعلنا ننقادُ إليها ، ونخضع لها بأنواره . فهي من مجال الحدس قبل مجال الاستدلال ، ومن مجال الاقتضاء والإلزام قبل مجال الخيار ، اذ أنها تحدسُ وتجعلنا نحدِسُ وتقتضي وتجعلنا نقتضي .

فهي التي تجعل كل شيء في الوجود نابضًا بالحياة غير هامد ، ومتحركا غير ساكن ، ومرغوبًا فيه غير مرغوب عنه ، وجاذبًا غير منفرٍ ، وداعيا الى الحياة السامية غير موجّه الى سفلياتها . ومع هذا فهي تتمنعُ ، ولا تتجلّى لنا الا في الحالات التي تصفو فيها نفوسنا ، ويتسامى فيها وجودنا الى أعلى قمة له فنصير ، ونحن نبلغ هذه الدرجة ، نرضى بأن ندفع من أجلها كل ثمن مهما كان مبلغه ويهون علينا في سبيلها كلُّ شيء سواها .

5 – ويظهر أن السؤال عنها ، والبحث فيها ، وطلب معرفتها في سرّها لا يكون الا حين تختفي آثارها بين الناس فتضطرب أحوالهم ، وفي المجتمعات فتنحلُّ عراها . وذلك لأن الحياة بدونها ليست هي الحياة مهما كان بريقها ولمعانها[9] .

فالناس لا يهتمون بها لأنها من الكماليات ، ولكن لأن وجودهم بين موجودات لا تحصر يفرضُ عليهم الاهتمامَ بها لتبين وضعهم على حقيقته في مجال الوجود ، ولأن وجودهم يتوقف على سيادتها بينهم . ولعل هذا هو الذي يفسر لنا من جهةٍ لماذا لم تظهر نظرية القيم أو فلسفتُها قبل القرن التاسع عشر ، على الرغم من أن المفكرين كانوايتوقفون معها للادلاء بآرائهم فيها ، ويبين لنا من

جهةٍ أخرى ، أن القيم في القرن التاسع عشر قد أخذت تميل الى حالة من التدهور لم تعرف البشرية مثلها قطّ .

لقد كان العالمُ في هذا القرن خاليا من القيمة أو في طريقه الى الخلوّ منها بما صارت اليه أوروبا من التجرد عن كمالات العقل النظري ، وبما صار اليه العالم الإسلامي من التخلف والعدول عن الجادة في كل مجالات الحياة كما يشير الى ذلك الأمير عبد القادر الجزائري ، في كتابه «ذكرى العاقل وتنبيه الغافل» في صفحاتٍ جدّ عميقة منه[10] .

هذا ، ولم يزل هذا العالم يبتعد عن القيمة أو تبتعد القيمة عنه الى أن صار يشبه في عصرنا الكهف الذي يتحدث عنه أفلاطون في الجمهورية كما يقول «جان فال» . وذلك لأن الناس صاروا فيه كمساجين هذا الكهف لا يرون أمامهم سوى رسوم على سورٍ ، وصاروا لا يدركون ما للأشياء من عمق[11] ولا يشعرون بها لأنه لا علاقة لهم الا بظلالها . وبالفعل فالعالم الذي نعيش فيه عالم سطحي في نظر الناس ، وعالم خالٍ من المعنى ، أو عالم لا يوجد فيه ما يرضى على الرغم مما يقدمه من التسهيلات والتسليات ، وعالم غير معقول لأن كل ما يقع فيه موضوع تساؤل لكل انسان ، فوق الأرض .

ان مشكلة القيمة لم تطرح نفسها على الإنسان مثلما فعلته في القرنٍ الماضي ، وفي قرننا بالخصوص . ولعل ذلك لأنها لم تبق فيه مشكلة جهوية أو مقصورةً على حضارةٍ ما ، ولكن مشكلةً عالمية وشاملةً لكل الدول ، والبلدان ، والأجناس والحضارات ..

6 – لقد بدأت بوادرها تظهر في القرن التاسع عشر على أشدها للنخبة المثقفة في أوروبا لما بدأت تعرفه هذه من تحولاتٍ خطيرة في مجالات حياتها الفكرية ، والاقتصادية والدينية أو الحضارية بصفة عامة .

ولعل الفيلسوف الألماني «رودلف هرمان لوتز» ، 1817 – 1881 (Rudolf Hermann Lotze) هو أول الفلاسفة الذين يجب علينا أن نذكرهم من بين من أثاروها لأن تفلسفه يعد محاولة أصيلة لجبر ما كسرهُ «كانط» حين فصل القيمة عن الوجود[12] ليجعلها من عالم الشيء في ذاته ، وليجعل هذا الأخير مجردَ اثباتٍ أو وضعٍ لشيء في الخارج كما يقول الامام محي الدين بن عربي من قبله بكثير[13] .

ان نظرية كانط هذه كانت رد فعل من طرفه على الدليل الانطولوجي الذي أدلى به ديكارت في القرن السابع عشر لاثبات وجود الله انطلاقًا من فكرة الكمال . وهي نظرية ظهرت لبعض الفلاسفة من بعد كانط سببا من الأسباب التي تدفع بالفكر الى التزق والشرود ، لأنها تعزل الوجود وتجرده من قوامه ، وتجعل الانسان في حيرة من أمره على الرغم من أن صاحبها حاول أن يصلح من شأنها في كتابه «نقد الحكم»[14] .

فمعرفة ما يجب أن يكون هي التي تفتح لنا الباب لمعرفة ما هو كائنٌ حسب «لوتز». ونظر

الى هذا فهو يرى أن الأشياء لا وجود لها بالنسبة الينا الا لأن لها قيمة[15] .

فالوجود في نظره قيمي ، ومن الواجب علينا أن نعتبر هذه الصفة فيه ، في تنظيم شؤون حياتنا وأن نعطي للقيمة مكانتها في رؤيتنا للأمورِ وفي نشاطاتنا ، وفي تعامُلنا مع محيطنا كما يقول في عدة من كتبه اتخذها الفلاسفة من بعده منطلقاتٍ لدراسة القيمة .

هذا ولقد اهتمَّ معه بهذه المشكلة ، وفي هذا القرن ، علماء الاقتصاد . ولعل ذلك لأن هذا المجال من حياة الانسان قد تقلب رأسا على عقب في أوروبا **بسبب الرأسمالة** التي صارت تسطو على خيرات العالم ، بكل ضراوة وتستغل جهود العمال بدون شفقة ولا رحمةٍ ، **وبسبب الماركسية** التي قامت تدافع عن الحقوق المهضومة ضد عدوان رأس المال وما يتبعه من قيم فائضةٍ تخول لناسٍ أن يعيشوا فيما يشبه الجنان ، ولا تسمح لمن يحققونها الا باللقمة المريرة التي تقيم الأود . ويمكننا أن نقول ، أيضا ، وبسبب التغيرات التي وقعت في العلاقات الاقتصادية بين الدول ، وبسبب الاستعمار ، والأمبريالية ، وكفاح الشعوب المضطهدة للدفاع عن خيرات أراضيها المسلوبة منها ، وصيانة كرامة الإنسان فوق ربوعها .

ان الاقتصاديين في هذا القرن لم يخف عليهم، مهما كانت نزعاتهم ، أن شؤون الاقتصاد لا يمكن ضبطها اذا بقيت حقيقة القيمةِ الاقتصاديةِ غامضةً لا يحيط العقل بمقوماتِها وآليات تحركها ، وكيف تكون قيمةً تترتب عليها آثارها ، لا قيمة مضطربة يصعب البناء عليها ، فأخذوا يهتمون بها ، وكان بحثهم فيها من العوامل الأساسية في ظهور فلسفة القيم. وذلك لأن كمال الانسان أو انحطاطه ليسا نتيجة صدفة ولكنهما من لوازم الاقتصاد السليم أو المتردي ، أو من لوزام الاقتصاد الذي تنظمه الحكمة أو الاقتصاد الذي تتولى أموره فوضوية الجهل مهما كانت أنواعها . وبالفعل فالقيمة الاقتصادية هي التي تعطي للاقتصاد في الأمة قيمةً . وهي التي تعطي للقيم الأخرى صورتها ، في كل مجتمع كما سنرى لدى حديثنا عنها[16] .

هذا ، ومن العوامل التي تسببت في ظهور فلسفة القيم في القرن التاسع عشر ، وفي أوروبا فلفسة المفكر الألماني «فريدرك نيشته» الذي عاش الأزمة الأوربية في عصره ، الى درجة الجنون ، فثار على القيم التي ظهر له أنها أوصلت اليها ثورة عارمة ، واقترح استبدالها بقيمٍ أخرى كان يرى فيها قيما للسادة لا للعبيد ، وقيما للحياة الدافقة الزاهية لا للجمود المميت بقوةٍ وعنفٍ . «سترتبط باسمى ، كما يقول ، ذكرى شيء لم تسمعه أذنٌ قط ، أو ذكرى أزمة لم تعرف الأرضُ مثلها ... انني لست رجلا ... ولكنني من المفجرات ... وانني سأعارض بما لم يعارض به أحد من قبلي»[17] .

وبالفعل فلقد عارض نيشته قيم زمانه بشدةٍ نادرةٍ ، ودعا الى قيم جديدة تتناسب وما تقتضيه «ارادة القوة» التي يمتاز بها الوجود ، وتمتاز بها الحياة ومن هم أهل لها . ولعل كتابه «ارادة القوة» الذي هو تحليل دقيق للحضارة الأوربية في عصره وتنبؤٌ نافذ بمستقبلها لخير دليل لتبين مشروعه في هذا المجال. انه لصحيح أن الرجل كان فيلسوفا غريب الأحوال، ولكنه وعلى الرغم من كل

الانتقادات التي يمكن أن توجه اليه ، مفكر مقدام كان يؤمن بما يدلى به لأنه كان ، على خلاف غيره ، يراهُ وكان يعتقد أنه خلق ليحيا الى النهاية أزمة الانسانية في عصره ، وانه من القلائل الذين يستطيعون أن يعربوا عنها على حقيقتها . وبالفعل فانه لم يهتم الا بهذه الأزمة وعاش على هامش الحياة ، عزبا بدون زوجٍ ولا أولادٍ ، ومنعزلاً لا يملك شيئا ، وثائرا لا يعرف لنفسه مجتمعا ، ولا وطنا ، ولا عقيدةً ، في مجتمع كان يعرف عنه أحسن من غيره أن كل شيء فقد فيه معناه . لقد استطاع أن يدرك بثاقب فكره العدمية (mihilisme) التي كانت تنخر جسم الحضارة الأوروبية وأن يعيش بها ، وأن يحللها ، وأن يصفها ، وأن يصف بعمق ما كانت تخفيه نافقاء مستقبلها ، وكأنه من مستقبلها[18] .

إننا ، وبالطبع ، لن نتعرض لما كان يراه في هذا المجال لأن فكره الوقاد الذي يحتوي على كثير من الدرر الفاخرة النادرة فكر تفسده في النهاية تناقضات جنونه ومطامحه التي كانت تتجاوز قدراته ، وكانت تحول بينه وبين التنظيم السليم لأفكاره .

لقد حاد نيتشه كثيرا عن الجادة في مجال القيم ، ولكنه ، وعلى الرغم من هذا ، استطاع أن يبين لغيره من المفكرين أن النظر في القيمة ضرورة الساعة وحداهم بقوةٍ وعنفٍ الى الاهتمام بها للتعرف عليها أكثر من ذي قبل ، وللتعرف على انسانية الانسان بعمق ، والبحث عن حلول صحيحة لمشاكله ، كادفع بهم لبناء ما نسميه اليوم بنظرية القيم أو «الأكسيولوجية» (Théorie des valeurs ou Axiologie) ، التي يمكننا أن نتوقف معها الآن ، وقد عرفنا كيف نشأت ، لنعرف ماهي ؟ بمعرفة ما تبحث فيه ، وما يميزها ، وما الذي ترمي إليه ، وان بصفة مجملة .

7 – لقد اعتاد الفلاسفة قبل ظهورها أن يدرسوا القيمة في اطار علم الوجود (L'ontologie) أو في اطار علم المنطق بالنسبة للحق ، أو الأخلاق بالنسبة للخير ، أو علم الجمال بالنسبة للجمال . ويعني هذا أنهم كانوا يدرسون منها ما كانوا يسمونه بالقيم الأساسية . وهي قيم ألفت فيها فيما بعد عدة كتب ، وأضيفت اليها فيما بعد قيمة رابعة هي قيمة الحب[19] .

هذا ولما ظهرت فلسفة القيم ، وصار أصحابها يقدمونها كفلسفة تعارض فلسفة الوجود تبدلت الحال وأصبح البحث في القيمة يغطي مواضيع الفلسفة كلها ، ويهتم بجملةٍ من القضايا لم يكن الفلاسفة السابقون يلتفتون إليها .

وبالفعل فلقد صار الفلاسة لا يكتفون في معرفتها بما يقدمه لنا ادراكنا المباشر لها ، وصاروا يحاولون ، وبالاعتماد عليه في الغالب ، أن يدركوا على ماذا تقوم ، وما هي علاقاتها بالوجود وما هي مجالاتها ، وكيف تتجلى لنا ، وكيف تجندنا لخدمتها وكيف نتجند لها ، وما هوالمعنى النهائي الذي يمكننا أن نمنحه لها .

اننا وبالطبع لا نستطيع أن نحيط في اطار هذه المقالة بكل ما كان من الفلاسفة والعلماء على اختلاف أنواعهم في مجالها ، وذلك لأن الدراسات التي تناولتها بالبحث ، وفي اللغات المختلفة لا

تحصر ، ولا زالت تتكاثر يوما بعد يومٍ لأن الأزمة الحضارية التي يعيشها العالم كله اليوم تقدم لها باستمرارٍ من المواضيع التي تقتضي النظر فيها على عجل ، والبت فيها على عجل ، ما يتجاوز حدود الخيال . وعليه فاننا سنتكفي بالتعرض لبعض قضاياها الهامة ، وسنحاول أن نبين ، من خلالها ، أنها هي التي تجعل الوجود وجودا ، وأن الإنسان لا يستطيع أن يحيط بها ، ولا أن يجعلها ملكا له يتصرف فيه كما يشاء ، ولا أن يسلط عليها أهواء جهله وقصوره لتصير سائدة ، وأنه ليس له معها الا أن ينضوي تحت لوائها لخدمتها ، والجهاد المستمر الواعي والمتفتح الشامل من أجل سيادتها في واقعه .

8 – ان القيمة حين نصطدم بها ، أو حين نعيش طبقاتها لا تتجلى لنا ، كما يرى «جان فال» ، الا قيمة خاصة ، وأنها لا تكون لنا ، ولا نكون لها الا اذا كان لنا نوع من الاختلاء بها ، وكنا لها دون سواها[20] .

فالقيمة العامة أو الكلية بعيدة عنا في نظره ، ومن الممكن أن نقول بأنها غير موجودةٍ بالنسبة إلينا ، وأنه لا يمكننا أن نثبتها اذا أثبتناها الا كفكرةٍ هي مثل فكرة الوجود ذات وحدةٍ مشكِّكةٍ ، ويعني هذا أنها فكرة لا تنطبق على كل القيم بالتساوي ، ولكن تنطبق على كل قيمةٍ بصفة خاصة . وعليه فهي تتجاوزنا ولا نستطيع أن ندركها في ذاتها ولكن في الصور التي تظهر لنا عليها في الموجودات الخاصة[21] .

فالجمال ، مثلا يظهر لنا في غروب رائعٍ للشمس أو في حركةٍ لطيفةٍ ، أن في حلاوة صوتٍ أو في صباحة وجه ، أو في بلاغة كلام .

والخير يظهر لنا في قول معروف ، واماطة أذى ، أو اعانة محتاج أو غضب من أجل الحق ، أو جهاد صادق في سبيل الله .

والحق يظهر لنا في خبر صادق أو نظرية يزداد بها علمنا ، أو كلمةٍ صامدة تقال أمام طاغية جبار ، أو موقفٍ ثابت في سبيل القضية العادلة .

والحب يظهر لنا في الميل الى طبيعة كل ما فيها آية تدل على وحدانية الله ، أو في تعلق بكمال فيه ملاء لنفوسنا ، أو في تفتح سمح الى الإنسان مهما كان ، أو في انجذاب طاهر كلي من الزوجين بعضهما الى بعض ، أو في تعاطف سخي مع أرض الآباء والأجداد .

ان القيمة كما نرى، تظهر لنا في صور متعددة . فهي تظهر لنا في الأفعال والأشخاص والموجودات حيين نقبل عليها ، ونحن نعي أن هناك نماذج للأعمال وأضدادا لها ، وحين نقبل عليها ونجد نفوسنا ، ونحن على هذه الحال ، نستجيب للأولى ونقول لها : نعم ! بصفة قاطعة ، ونعرض عن الثانية ونقول لها لا ! بصفة قاطعةٍ جازمةٍ كما يقول الفيلسوف الألماني «ماكس شلر» صاحب كتاب «الصورية في الأخلاق وأخلاق القيم المادية» .

9 – ويعني هذا أن القيمة حين تظهر لنا ، ونسكن إليها ، تصير بالنسبة الينا مثلا أعلى

نتمسك به تمسكا مطلقا لا تردد فيه ، لأننا نشعر اذ ذاك أن حياتنا بدونه كاللاحياة ، ونشعر بأنه كان يعوزنا ، وكنا نبحث عنه ، ونطمح إليه ، لأن حاجتنا إليه ملحة ودائمة ...

وهي حين تظهر لنا نراها ونقدرها لأنها **تبدو لنا** من جهة في درجةٍ ما من «هيرارشية» للقيم يمكننا أن نختار منها ما يبدو لنا ، وأن نفضل احداها على الأخرى ، **وتبدو لنا** ، من جهة أخرى ، قطبا ايجابيا بالنسبة الى قطب آخر سلبي يقابله ، وتمثله القيمة المضادة للقيمة التي نفضلها ونختارها . ومن المعلوم أن «هيرارشية» القيم ، وقطبيتها اذا كانتا بهذه الصفة فهما تعنيان أن هناك سلما للقيم الايجابية يقابله سلم للقيم السلبية[22] . ومن هنا فانه يجب علينا أن نتساءل ما هي هذه القيم ؟ هل هي قيم دنيا أو ليست قيما بالكلية ؟ واذا كانت بهذه الحال ، فما هي ؟ وما هو معناها ؟.

ان الجواب عن هذه الأسئلة صعبٌ ان لم نقل انه مستحيل . وللفلاسفة ولعلماء الدين الاعلام ، وللمتصوفة الكبار أجوبة كثيرة عنها ، ولن نتعرض لها لأنها من مستواهم ولسنا منهم . والذي يمكننا أن نقوله بهذا الصدد هو أن هذه المسألة ذات علاقة متينة بمسألة الحق والباطل ، والحق ثبوت ووجود ، والباطل عدم ولا وجود ، أو وجود زائف .

هذا ، ولا تطرح هيرارشية القيم وقطبيتها على العلماء هذه الأسئلة فحسب ، ولكنها تطرح عليهم أسئلة أخرى أهمها السؤال الخاص بامكانية تصنيفيها وعدمها .

10 – ان تصنيف القيم غير ممكن اذا كانت القيمة خاصة ، وذلك لأنها تتجاوز ، وهي بهذه الصفة ، كل تصنيف ، ولا يمكن أن يحيط بها هذا الأخير . ولهذا فنحن لا نجد لها تصنيفا واحدا ولكن عدة تصنيفات كل منها فيه المقبول والمردود . ويظهر أنها بهذه الصفة لأن القيمة وان كانت لها بنية وصورة دائمة هي مهما كان محتواها قيمة تتمثل لنا حسب الظروف التي تظهر لنا فيها ، وفي صور تختلف من مكانٍ الى مكان ، ومن زمان الى زمان . ويكون لها من المكانة بقدر ما يكون احتياجنا اليها . فالاصالة بالنسبة إلينا ، مثلا ، قيمةٌ تهيمن على أفكارنا ، وكذلك العلم ، والدين واللغة لأننا مجردون عنها ، أو لأننا لسنا في المستوى الذي تقتضيه هذه القيم منا . ونظرًا الى هذا فاننا اذا قمنا بوضع تصنيف للقيم نابع من أعماقنا ، ولا نقلد فيه أحدًا سوانا ممن سبقونا في الاهتمام بها فاننا سنجعل لقيم الأصالة وللقيّم اللغوية والدينية والعلمية مكانة معتبرة في تصنيفنا . ويمكننا أن نتحقق مما نقول اذا تأملنا بما فيه الكفاية تصنيفات «ماكس شلر» و«لويس لافيل» و«نقولاي هارتمان» و«جان فال»[23] من المؤلفين الكبار فيها . وهي تصنيفات يمكننا أن نضيف اليها للتأمل ذلك التصنيف الذي يقدمه لها أبو حيان التوحيدي في كتابه «مثالب الوزيرين» حين يقول : «والغاية التي إليها الموئل في خصال ثلاث هن دعائم العالم وأركان الحياة وأمهات الفضائل ، وأصول مصالح الخلق ، وهي الدين والخلق والعلم ، بهن يعتدل الحال وينتهى الى الكمال . وبهن ينال أعزّ ما تسمو إليه الهمة لأن الدين جماع المراشد والمصالح

واخلق نظام الخيرات والمنافع ، **والعلم رباط الجميع ، فمن حظى بالعلم الذي هو حياة الميت وكمال الإنسان فقد بلغ النجد الأشرف ، وصار الى الغاية القصوى**[24] .

11 – هذا ولن نتحدث عن هذه التصنيفات ولا عن غيرها لأنها كما قلنا تصنيفات تنفيها حقيقة القيمة وتلغيها ، ولأنها تصانيف تقريبية تقوم على معطيات آنية وعلى اجتهادات أكثر مما تقوم على أسس يقينية ، ولكننا لا نستطيع أن نمر عليها من غير أن نشير الى ما حدث فيها من الاهتمام المتزايد بالقيم الاقتصادية التي كانت الفلسفة القديمة لا تعيرها أهمية كبرى لاعتقادها أن الروح في الإنسان هو الجزء الأسمى ، وأن الجسم هو الجزء الأدنى ، وانه يجب الاهتمام بالأول وإن على حساب الثاني ، والحقيقة أن الجسم قيمة مثل الروح ، وأن مقتضياته القيمية هي الأساس الذي تعتمد عليه قيم الروح ومقتضياته . فالبلدان التي يوجد فيها العلم ، ويوجد معه الدين ، وتوجد فيها الأخلاق هي البلدان المتقدمة اقتصاديا ، وان كان اقتصادها غير قيمي في الغالب وأعني به اقتصاد البلدان التي تقوم رفاهيتها على نهب الخيرات الموجودة في البلدان الأخرى بكيفية أو أخرى .

ولعل الأزمة الحضارية الحالية هي أزمة قيمية اقتصادية قبل كل شيء وأزمة يبدو أنه لن يكون لها انفراج الا بارساء أسس أخلاقية لنظام اقتصادي عالمي جديد .

ان هذه مسألة يمكن أن يقع التردد فيها ، ويمكن أن تغيب أبعادها عن الفكر القاصر . ومع ذلك فهي المسألة الرئيسية التي تحل كل مشكل للإنسان والإنسانية اذ حلت في اطار متطلبات القيمة الأصلية التي هي في صميمها حركة مباركة وحياة سامية وكمال ورقي .

لقد ذم النبي عليه ﷺ المال ومدحه ، وذمّ الفقر ومدحه . ومن الواجب أن ننبه الى أنه ﷺ ذم المال الذي لا خير فيه أو المال الذي يزيد في حيوانية الإنسان ، ومدح الفقر الذي يظهر على صاحبه وكأنه غنى مطلق لأنه ، في النهاية ، فقر الى الله بالنسبة الى صاحبه ، وزهد في هذه الدنيا لأنها لا تساوي عند الله جناح بعوضة . ولقد مدح النبي ﷺ من بعد هذا المال فقال «نعم المال الصالح عند الرجل الصالح»[25]، وذم الفقر فقال «لعن الله الفقر ، كاد أن يكون كفرا»[26] للتنبيه على أن المطلوب من الإنسان المسلم ليس هو الجوع مع الصلاح لأن هذا غير ممكن أو لا يمكن الا بعناء ، وللتنبيه على أن الإسلام ليس دين عناء . انني لن أتوقف مع هذه المسألة لأن تفريعاتها كثيرة جدا ، ولكنني لن أنتهي منها الا اذا أكدت على أهمية القيمة الإقتصادية التي يجب أن تخضع لمقتضيات القيمة ،وعلى أهمية القيمة الاقتصادية بصفة عامة ، وأهمية القيمة الاقتصادية الإسلامية التي لا زالت لم تأخذ حقها من الدراسة الجادة الى الآن بصفة خاصة ، وأعني بها الدراسة التي يقوم بها العلماء حقا ، والمختصون في المادة حقا . وهي ككل الدراسات التي تترتب عليها آثارها دراسة تحتاج الى معارف كثيرة واسعة ، ولا يمكن أن يقوم بها العالمون ، ولا الهواة مهما كان ذكاؤهم .

12 – هذا وتظهر لنا القيمة حين نصطدم بها ، ونقوم بتجربتها تابعة لذواتنا مرة ،وتابعة للموضوعات التي تتجلى لنا فيها مرة أخرى . وبالفعل فالقيمة من جهة لا يمكن أن تتجلى لنا اذا لم تجتمع لدينا الشروط الوجدانية والعقلية والارادية لتقبلها ، أو اذا لم نر لنفوسنا فيها فائدة أو منفعة كما يقول الفيلسوف الأميركي[27] «رالف بارتون بري» . (1876 – 1957) (Ralph Barton Perry) وهي من جهة أخرى كثيرا ما تظهر لنا مرتبطة بموضوع ظهورها لندرتها كما هو الشأن في بعض القيم الاقتصادية والفنية ، أو لقدمها ، أو لجدتها أو لهيمنة المجتمع ، أو لشهادة التاريخ لها[28] . ومع هذا فاننا لا نستطيع أن نقول عنها ، انها ذاتية أو موضوعية ، أو انها ذاتية وموضوعية في آن واحد ، وذلك لأنها تتجاوز الذات ، وتتجاوز الموضوع ، وتتجاوزهما معا . انه لصحيح أن إمكانية قبول القيمة لا ينفصل عن امكانية رفضها ، وأنه يجب علينا تبعا لهذا أن نعتبرها مرتبطة بحريتنا أو بذواتنا ، وأن نقول ان القيمة ليست قيمة الا لأننا نعتبرها كذلك ، والحقيقة أن القيمة ذات علاقة متينة بحريتنا ولكن في مستوى تكون فيه (هذه) في قمّة وافعها كما سنشرحه بعد قليل .

وعليه فانه يتحتم علينا أن نرجع الى المسألة من جديد وأن نحاول الجواب عنها .

يرى أفلاطون أننا نثبت قيما بغض النظر عما نلاحظه لأن العالم قيمي أو فيه قيم . وعليه فالقيمة موضوعية . ويرى «اسبينوزا» أن الأشياء ليست لها قيمة الا لكونها تعجبنا . وعليه فالقيمة ذاتية[29] ، والحقيقة ، مرة أخرى ، ان القيمة ليست ذاتية محضة ، ولا موضوعية محضة ، وأنها تطلب الذات ، وتطلب الموضوع ، وان رؤيتنا لها كذاتية تلغى موضوعيتها والعكس .

ولهذا ، فان «جان فال» يرى أنه لا يمكننا أن ندركها على حقيقتها الا اذا تجاوزنا الثنائيات التي تظهر لنا عليها من ذاتية وموضوعية ، أو نسبية ومطلقية ، أو خصوصية وعمومية ، وحرصنا على أن يكون ادراكنا لها بشعور أولى أو تجربة أولية لن نكون فيها مرتبطين بالذاتي أو الموضوعي ، ولكن بوحدةٍ تحت العقل تقع بين ما هو ذاتي وما هو موضوعي ، ويعني هذا أن ادراكنا لها يجب أو ينبغي أن يكون ادراكا لا نعبر عنه تعبيرا عقلانيا يستحيل عليه أن يطابق موضوعه في هذا المجال ، ولكن ادراكا شعوريا يتأتى لنا في مستوى هو وراء العقل أو فوقه أو دونه . وهو ادراك يتجاوز ذاته ويكون كاتحاد منا كناس بالأشياء والموجودات . وبالفعل فنحن لا نحس بالقيمة الا في هذه الحال ، ولاننقاد لها ، ولا تصبح دليلنا الذي نهتدي به الا فيها[30] .

وهي على كل حال تظهر لنا متعالية مهما كانت صورة اتصالنا بها ، وكلية مهما كانت خصوصيتها ، ومطلقة مهما كانت نسبيتها ، ونحن دائما دون تعاليها وكليتها ومطلقيتها لأن الدوام النسبي الذي تتصف به عبر الظروف المختلفة التي تتجلى فيها يجد صدى له في الدوام الذي تتصف به المميزات العامة للطبيعة البشرية[31] .

13 – إننا في جهة ، والقيم في جهة أخرى . وهي ، وان كانت ذات علاقة بنا ، بعيدة عنا .

وهي ، ان كانت واضحة لا نخطىء في معرفتها اذا كانت فطرتنا سليمة ، تتجاوز ادراكنا العقلي لها . وهي ، وان كانت لا تظهر لنا الا خاصة ، كالنافذة التي نطل منها على المطلق ولانهايته . وهي ، وان كانت تتطلب منا اعترافا بها لتسود ، فهي التي لها في النهاية الزمام ، وهي التي تدلنا على طريقها وتجعلنا نسمو اذا سرنا عليه وننحط اذا تنكبنا عنه ، فنحن معها كايقول «جان فال» مثل العالم الرياضي الذي ينطلق في دراسته للأعداد والأشكال والأجسام من ملاحظاته للطبيعة ، فيعبر عنها بمعادلاته ، ويرجع الى هذه المعادلات فيطبقها في تحقيق مآربه ، ولكنه يضيّع طريقه حين يعرض عن الواقع ويعتمد عليها فقط لتحقيق فتوحات جديدة لنفسه اذ يرى عالما جديدا مستقلا عنه وعن واقعه وعن تطبيقاته ينفتح أمامه ، دون كَشْف سِرِّهِ خَرْطُ القتاد[32] .

ان القيمة ذات قيمة في ذاتها . والعالم الذي نعيش فيه عالم قيمي . وهو على خلاف مايقوله عنه «نيشته» عالم تعمره المعاني والدلالات أو الآيات كما يقول الكتاب العزيز ، وما علينا الا أن ننسجم معه وأن لا نتعدى على قيمته في كل شأن لنا ليكون من كل منا انسان بالحقيقة لا بالصورة .

يقول الله جل وعلا في كتابه العزيز ﴿**وما خلقنا السماوات والأرض وما بينهما لاعبين ، ماخلقناهما الا بالحق ولكن أكثر الناس لا يعلمون**﴾[33] .

14 – انني لن أتوقف مع هذه الآية الكريمة لأنني لم أوردها الا للتأكيد على قيمية العالم التي كنت أتحدث عنها ، وقيمية الوجود الذي نحن من جملته ، ولأبني عليها ما أتعرض اليه فيما بعد . لقد تحدثنا الى حد الآن عن القيمة بالنسبة للإنسان ولكننا لم نتحدث الا لماما عن الإنسان بالنسبة اليها مع أن له دورا أساسيا في ظهورها وسيادتها . وبالفعل فالعالم الذي لا وجود للانسان فيه عالم محايد ولا يمكن أن يتصف بقيمة أو غيرها . وأما العالم الذي يوجد فيه الإنسان فانه لا يمكن أن يكون عالما محايدا ، ولكن عالما ذا قيمة في ذاته ، وذاقيمة بالنسبة للإنسان الذي هو منه . ونظرًا الى هذا فانه لا يمكننا أن نعتبر الإنسان طرفا سلبيا تجاهه وتجاه قيمته . إنه لصحيح أن القيمة التي هي قوام كل موجود لا تجلو نفسها له الا حين يعيش طبقا لقانونها ولكنها بهذه الحال ، لا لأنها في غنى عنه ولكن لأنه لا يمكنها أن تظهر وأن تسود الا اذا كان حاملها والمستجيب لمقتضياتها ، ولا يمكنه أن يكون الا اذا كان له شرف خدمتها والدفاع عنها .

فالعالم الذي تسود فيه اللاقيمة ، سواء كانت هذه باطلا أو ظلما أو قبحا أو كراهية ، عالم للخراب .

وبما أن هذه ليست تابعة للنظام الذي يمسك الكون، ولكن للإنسان – القيمة فان الإنسان هو الذي تتوقف عليه القيمة لا في وجودها ولكن في ظهورها وسيادتها. فهو الذي يأتيها بما هو غير موجود لها مما هو موجود له بواسطتها، وبالقدرة التي له على اعطائه لها حتى وان كان لا يملكه[34].

وبالفعل ، فالقيمة لا يكون لها وجود الا كموضوع تطلبه وتعترف به ذات مطلوبة لها ، تتحقق بها وتحققها ، وأما الإنسان فانه لا يكون جديرا بانسانيته الا اذا كان ذاتا تعرف القيمة وتستجيب لندائها . هذا وبما أنه كثيرا ما يعرض عنها ، ويترك اللاقيمة تتغلب عليه ، وتقيم حكمها الجائر ، فهو في النهاية مسؤول عنها . وهو مسؤول عنها لأنه كائن حر يستطيع أن يختار القيمة وأن يكون من خدمتها ، ويستطيع أن يختار اللاقيمة وأن يكون من مناصريها .

15 – ان القيمة التي يقوم عليها كل شيء ذات علاقة عضوية بحريتنا . ولذلك فالتفكير فيها لا يمكن أن يكون شاملا اذا لم يقع ربطها بهذه الأخيرة .

والذي يمكننا أن نقوله في هذا الموضوع هو أن الحرية أساس القيمة أو أساس سيادتها وهيبتها ، وأن القيمة ليست الا الحرية حين تتجاوز نفسها ، وتختار أن تكون لوجود القيمة الحق عوضا عن عدم اللاقيمة الذي يتوجه بالانسان الى ما يُرْدِي به مهما كانت مغرياته[35] .

ولعل القيمة تغيب عنا ويستعصى علينا ادراكها لأننا منها ، ولأنها منا ، ولأننا لا نتوصل الى أن ندرك بوضوح أن لا وجود لنا بدونها ، وأن لا سيادة لها اذا لم نكن أهلا للتحلي بها . هذا ويظهر أن الامام ابن قيم الجوزية كان يعرف هذه الأفكار بعمق ولئن عاش منذ قرون فوق هذه الأرض ، لأن حياته كانت بالقيمة ومن أجلها . لقد كانت حياته بالقيم الإسلامية ومن أجلها . ولذلك فهو يتكلم عن الإسلام ، والإسلامُ أسمى القيميّات كلها ، بعربية لا نجدها الا عند العلماء الأجلاء ، وبفكر ثاقب نافذ لا نجده الا عند أهل الاجتهاد من الاعلام ويتحدث عن المسلمين وعلمائهم وأمرائهم بما يجعلهم يعيشون قيم الإسلام السامية لا بالدعاوى والانغلاق على النفس ، ولكن بالعلم الذي تنشرح له النفس مهما كانت ، والتفتح الذي تغزو أنوار هديه ، وتعم خيراته كل كائن فوق الأرض .

ان شريعة الإسلام كما يعرفها هذا العالم الفذ عدل كلها ، ورحمة كلها ، ومصالح كلها ، وحكمة كلها ، لأن مبناها وأساسها على الحكم ومصالح العباد في المعاش والمعاد فهي حكمة الله الدالة عليه وعلى صدق رسوله عليه الصلاة والسلام ، وهي العصمة للناس وقوام العالم ، وعموده وقطب الفلاح في الدنيا والآخرة[36] .

وأما علماء الإسلام فهم في الأرض كما يقول ، بمنزلة النجوم في السماء ، بهم يهتدي الخ ي الظلماء ، وحاجة الناس إليهم أعظم من حاجتهم الى الطعام والشراب[37] .

هذا ، ويتحدث عما بجعل الإسلام يسود فوق الأرض ، ويجعل صلاح العالم حقيقة ممكنة التحقيق بواسطته فيقول : ولما كان قيام الإسلام بطائفتي العلماء والأمراء وكان الناس كلهم تبعا لهم كان صلاح العالم بصلاح هاتين الطائفتين ، وفساده بفسادهما[38] ، ويتحدث عن العلماء بالخصوص فيجعلهم مسؤولين عما يجرى فوق الأرض قبل غيرهم من الناس كلهم[39] .

ان هذه النصوص يبين لنا فيها الإمام ابن قيم أن الإسلام مجموعة من القيم السامية ، أولا

وأن علماء الاسلام تحركهم القيم الإسلامية ويعيشون طبقا لمقتضياتها ، ويجاهدون من أجلها ، ثانيا ، ويبين لنا أن قيام الإسلام بمبادئه الكونية لا يتم الا عن طريقهم لأنهم عصابة الإيمان وعسكر القرآن وجند الرحمن ثالثا ، وأن صلاح العالم بصلاحهم وفساده بفساهم رابعا .

والذي نستنتجه منها هو الدور الأول الذي يمنحه للإنسان في سيادة القيمة على الرغم من أنه لا يمكنه أن يكون بدونها . فالقيمة هي الإنسان – القيمة .. ولعل حالتها هذه هي التي تجعلها تختلط علينا ، وتظهر لنا بعيدة عنا ، وقريبة منا من جهة ، وتجعلنا نبحث عنها خارج نفوسنا ولا نحس بها حين نحس بها الا داخلها ، من جهة أخرى .

ان القيمة من حقنا أن نبحث عنها في نفوسنا لأنها دعامتها ، وأن لا نبحث عنها في غيرها .

فالانسان – القيمة هو الذي يطلب القيمة . والقيمة هي التي تجعله كذلك حين يطلبها لذاتها ويرضى بأن يكون خادما لها . ويعني هذا أن الإنسان اذا لم يكن في نفسه قيمة فانه لا يستطيع أن يكون لها ، حتى ولو كان يخيل إليه أنه صاحبها دون الناس كلهم .

16 – وبالفعل فالقيمة التي هي الحق والجمال والخير والمحبة قد تختلط على الإنسان بغيرها فيخدم ما يضادها ، وهو يعتقد أنه يخدمها كما يحدث للناس الذين يصابون بما يسميه فلاسفة القيمة بالعمايات القيمية أو العاهات . وهي عاهات كثيرة يمكننا أن نعد من بينها :

– النزعة الأخلاقية التي ترى أن القيمة العليا في لذائذ الفرج والحياة أوالمال .

– والمادية التي ترى أنها في الإنتاج أو الاقتصاد من أجل الاستهلاك الحيواني .

– والنزعة السياسية التي ترى أنها في المجتمع ، والسياسة ، والرقي الاجتماعي على حساب الفرد وحقوقه المقدسة .

– والعقلانية التي ترى أنها في العقل دون غيره .

– والعلمانية التي ترى أنها في العلم .

– والنزعة الفنية التي ترى أنها في الفن .

– والنزعة الأخلاقية التي ترى أنها في التشبث بطبائع متحجرة لا علاقة لها بالأخلاق .

– والتعصب الذي يرى أنها في الجنس أوا لأمة أوالحزب ، أوالدين لا على ما هي عليه في حقيقتها المشرقة ، ولكن كما يراها الشخص من زاوية أهوائه الجائرة .

ومن هذه العاهات عاهات أخرى كثيرة : منها تلك التي تَبَيَّنها نيشته ، وهو يحلل الحضارة الأوروبية في زمانه ، فقام يحاربها بعنف كثيرا ماحاد به عن جادة الصواب . ومنها تلك التي تبيَّنَهَا الأمير عبد القادر الجزائري والامام جمال الدين الأفغاني من بعده فقاما يحاربانها ، ويدعوان المسلمين الى النهوض والرجوع الى القيم الصحيحة التي منحت أسلافهم كل عز .

ويبدو أن الغاية لم يقع الوصول اليها لا في أوروبا ولا في العالم الإسلامي . فمشاكل الناس هنا وهناك كثيرة ، ولا زالت القيمة هنا وهناك لم تفرض نفسها على حركة الحياة على الرغم من

أن الناس يدعون اليها في كل مكان ، ويدعون الى العمل من أجل سيادتها .

17 – والذي يراه فلاسفة القيمة في هذا المجال هو أن القيمة دائما مهددة لأنها غاية عزيزة المنال .

ولذلك فان العمل من أجل سيادتها ، والوصول الى تحقيق مطالبها لا يمكن أن يتم الا اذا كان الجهاد في سبيلها دائما ، وتولىّ نصرها والمحافظة عليها والدفاع عنها ، العلماء أصحاب القيمة ، وهم أولئك الذين يصفهم ابن قيم الجوزية حين يقول : انهم ألين الأمة قلوبا ، وأعمقهم علما . وأقلهم تكلفا ، وأحسنهم بيانا وأصدقهم ايمانا ، وأعمهم نصحية ، وأقربهم الى الله وسيلة[40] ، وبالفعل فالعالم – القيمة قوّة لا تقهر ، في خدمته للقيمة ، ومثال حيّ لتحقيقها في الوجود من خلال شخصه ..

ولنا في تاريخ بلادنا أمثلة عديدة له تثبت ما نقوله وما يقوله ابن قيم عنه ، وتثبت أن القيمة ليست في متناول كل يد لأنها لا تتوقف على القيام بصورة لواجب لا تترتب عليه آثاره ، ولكن على تنظيم شامل حكيم ودائم للحياة فوق الأرض ، يرضى الله عنه ويسعد الإنسان في ظله .. ولأنها لا تكون الا لمن يستحقها ويدفع مهرها ، أو لمن يجاهد من أجلها ولا ينقطع جهاده من أجلها لأنها طريق الإنسان الى الله وقربته منه ، والطريق الى الله لا متناه والقربة منه لا تتوقف عند حد .

ان هذا هو الذي يشرحه لنا الحكماء من فلاسفة القيمة وعلماء الدين .

وهو يفسر لنا أن حياتنا بدون قيمة لا معنى لها وأن القيمة التي لا تحيط بها عقولنا ، وان كانت حاجتنا اليها ملحة ، يحيط بها كياننا كله اذا كنا لها بالحقيقة ، ويفسر لنا أن الإنسانية لن تبلغ كمالها ورشدها فوق الأرض الا اذا كان جهادها من أجل الحق والحب والجمال والخير في سبيل الله دون سواه .

﴿والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا وان الله لمع المحسنين﴾[43] ويعني هذا أن القيمة في النهاية مسألة جهاد من أجل الوجود ، ومن أجل الوجود الحق ، وأن أنوارها لا يمكن أن تجلو أمامنا طرق العز الا اذا كانت الغاية من دعوتنا اليها ، وخدمتنا لها وجه الله الواحد القهار اذ الكل منه وإليه ...

﴿فأما من طغى وآثر الحياة الدنيا فان الجحيم هي المأوى ، وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى فان الجنة هي المأوى﴾[44] .

الهوامش

(1) ابن منظور ، لسان العرب

(2) التهانوي كشاف اصطلاحات الفنون ، ج 1 ، ص 178 ، بيروت بدون تاريخ .

(3) الربيع ميمون ، نظرية القيم في الفكر المعاصر ، ص 29 ، الجزائر 1980

(4) سورة البينة ، 5

(5) الربيع ميمون ، المرجع السابق ، ص 30 .
(6) راجع ، يوسف كرم ، العقل والوجود ، ص ، 124 – 141 دار المعارف بمصر ، الطبعة الثالثة .
(7) Rabia Mimoune, L'empirisme mystique de Jean Wahl, 3e partie, chap. Le Règne des Valeurs (à paraître).
(8) Ibid.
(9) Ibid.
(10) ص 67 بيروت ، 1966
(11) Rabia Mimoune, op., cit., Ibid.
(12) Jean Wahl, Traité de Métaphysique, p.514.
(13) انشاء الدوائر في مجموع ، ص 6 – 7 ليدن ، 1339 هـ .
(14) Jean Wahl, Traité de Métaphysique, p.514.
(15) Maurice Dupuy, la Philosophie Allemande, p.84
(16) الربيع ميمون نظرية القيم ص 46 – 48
(17) Maurice Dupuy, op. cit
(18) Rabia Mimoune, op., cit., 1ère partie, chap. Les Cours de Sorbonne.
(19) الربيع ميمون ، نظرية القيم ص ، 46 – 62 .
(20) R. Mimoune, op,. cit., 3e partie, chap. Le Régne des Valeurs
(21) Ibid.
(22) Ibid.
(23) Jean Wahl, Traité de Métaphysique, pp.516-528.
(24) راجع نظرية القيم ، ص 23
(25) راجع ، أبو حامد الغزالي ، الاحياء ، ج 3 ، ص 228
(26) نفس المرجع ص ، 229 دار احياء الكتب العربية
(27) Cf. J. Wahl, op., cit., p.518.
(28) Ibid., pp.518-519.
(29) Ibid., p.52.
(30) Rabia Mimoune, op., cit., 3e partie.
(31) Ibid.
(32) Ibid.
(33) سورة الدخان ، 36 – 37
(34) Ibid.
(35) Ibid.
(36) ابن قيم الجوزية أعلام الموقعين ، ج 2 ، ص 14 – 15 ، القاهرة 1955
(37) نفس المرجع ، ج 1 ص 9
(38) نفس المرجع ، ج 1 ، ص 10
(39) نفس المرجع وفي نفس الصفحة
(40) نفس المرجع ، ص 12
(41) ابن باديس (آثاره بتحقيق الدكتور عمار طالبي) ج ، 3 ، ص 236 ، نشر الشركة الجزائرية ، مرازقة بودارد ، 1968
(42) الأحزاب ، 23
(43) العنكبوت ، 69 .
(44) النازعات ، 37 – 38 – 39 – 40